الفصل الرابع

مدى ارتباط الإنسان بالدعاء

نفسيات الإنسان ومزاولته الدعاء في جميع أحواله:

يشقق لنا القرآن دخائل النفس ومكنونات الضمير، وأحاديث القلب وهمسات الوجدان.. وتصل بنا آياته إلى الأعماق، فتظهر ماخفي، وتكشف عما استتر، وترينا ألواناً عدة وقطاعات النماذج نفسية..

وهاهي ذي آيات كريمة تصل بنا إلى أغوار النفس البشرية وتُلقي الضوء على أبعادها فتكشف أقطارها..

نفوس يحاط بها فتفر إلى الملجأ، وتفزع إلى الملاذ.. ثم إذا تبدد ما ران عليها نضبت عنها ثوب الخشوع.. وتنكرت وتنمرت.

ونفوس لاتفتر ولاتمل من طلب السعة ودوام النعم، وإمتداد أسباب الخير، وإذا مسها شر أو ضر أرتدت إلى دياجير الظلام وآضت إلى أغوار اليأس، وعادت إلى ضباب القنوط..

ونفوس غير هذه وتلك، مشرقة نيّرة، مع الله في كل آن، دعاء وشكر في النعمة والنقمة.. لم يلوث صفاء قلوبهم حرمان، ولم يبطرهم جزيل سبب أو كثير عطاء..

يصور القرآن كل هذه الحالات النفسية، وينير لنا جوانبها، ويبين دخائلها فيقول: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾[1].

---

(١) يونس: ١٢.

في هذه الآية يُخبر الحق تبارك وتعالى عن الإنسان وضجره إذا مسّه الشر (وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض) أي كثير وهما في معنى واحد، وذلك لأنه إذا أصابته شدة قلق لها، وجزع منها، وأكثر الدعاء عند ذلك، فدعا الله في كشفها ورفعها عنه في حال إضطجاعه وتعوده وقيامه وفي جميع أحواله، فإذا فرّج الله شدته، وكشف كُرْبته، أعرض ونأى بجانبه، وذهب كأنه ماكان به من ذلك شيء ﴿مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾[1]، ثم ذم تعالى من هذه صفته وطريقته فقال ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[2]. فأما من رزقه الله الهداية والسداد والتوفيق والرشاد، فإنه مستثنى من ذلك كقوله تعالى:

﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾[3]، وقول رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمنين لايقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضبراء فصبر كان خيراً له، وإن أصابته سراء فشكر كان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمنين».

وعن أبي هريرة وسلمان رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «من سره أن يستجيب الله تعالى له عند الشدائد والكروب فليكثر الدعاء في الرخاء»[4].

وقال رسول الله ﷺ: (تعرف إلي الله في الرخاء يعرفك في الشدة).

وفي الأثر عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: (أدعُ الله تعالى يوم سرائك، يستجب لك يوم ضرائك)[5].

ويقدم لنا القرآن الكريم صورة أخرى من هذه النفسيات الإنسانية في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ

---

(١)، (٢): يونس: ١٢

(٣) هود: ١١

(٤) رواه الترمذي والحاكم وقال صحيح الإسناد.

(٥) أخرجه أبو الشيخ.

إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾[1].

قوم امتطوا ظهر السفينة للعمل أوالنزهة، فأخذت تشق بهم عباب الماء، وغرتهم صفحة البحر التى تنساب رقة وجمالاً.. هاهى السفينة تسرى وتجرى تسرى بمن فيها وتجرى بهم. تدفعها ريح طيبة تبعث البهجة والفرح فى النفوس.. وسرعان ماتلبد الجو واكفهر، وغضبت السماء، وأظلمت الدنيا، وعوت الرياح.. واهتزت السفينة فى يد الأمواج التى أحدقت بها من كل مكان.. وتبين لركاب السفينة نهايتهم المحتومة.. ولاحت لهم الخاتمة.

ففزعوا إلى الله داعين إياه، مخلصين له فى التضرع والدعاء، إذ لاملجأ منه إلا إليه، وتضرعوا إليه بكيانهم، وعاهدوه قائلين ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ وحقق الله رجاءهم ودعاءهم فأنجاهم.. وما أن وطئت أقدامهم الأرض.. وأحسوا الأمان حتى عادوا سيرتهم الأولى، ورجعوا إلي ماكانوا عليه، ولم يفوا بالعهد، ولم يقوموا بالشكر، بل بغوا وطغوا وأفسدوا وجاروا.

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم﴾[2] أى إنما يذوق وبال هذا البغى أنتم أنفسكم ولاتضرون أحداً غيركم.

ولبيان فظاعة البغي وأثره فى المجتمع نروى من الآثار مايوضح عظمة وسوء منقلب صاحبه..

* أخرج البيهقى فى الشعب عن أبى بكرة رضى الله عنه قال: قال رسولاالله ﷺ: «مامن ذنب أجدر أن يُعجل لصاحبه العقوبة من البغي وقطيعة الرحم».

---

(١) يونس: ٢١ ـ ٢٣.

(٢) يونس: ٢٣

* وأخرج أيضاً من طريق بلال بن أبى بردة عن أبيه عن جده عن النبىﷺ قال: «لايبغى على الناس إلا ولد بغى أو فيه عِرق منه».

* وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن عمر رضى الله تعالى عنهم، قالا: قال رسول الله ﷺ: «الوبغى جبل على جبل لدُك الباغى منهما».

* وأخرج أبو الشيخ وأبو نعيم والخطيب والديلمى وغيرهم عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث هن رواجع على أهلها المكر والنكث والبغى، ثم تلا عليه الصلاة والسلام: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم﴾[1] ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾[2] ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾[3].

وكان المأمون يتمثل بهذين البيتين لأخيه:

ياصاحب البغى إن البغى مصرعه ... فاربع فخير فعال المرء أعدله

فلو بغى جبل يوماً على جبل ... لاندك منه أعاليه وأسفله

وعقد ذلك الشهاب فقال:

إن يعد ذو بغى عليك فخله ... وارقب زماناً لانتقام باغى

واحذر من البغى الوخيم فلو بغى ... جبل على جبل لدُك الباغى

ولعظم نتائج البغى السيئة فى المجتمع خاطب الله تعالى الناس جميعاً بخطاب يفهمهم فيه أن بغيهم على غيرهم إنما هو فى الحقيقة بغى على أنفسهم، وهذا البغى هو تمتع دنيوى فحسب.

---

(١) يونس: ٢٣

(٢) فاطر: ٤٣

(٣) الفتح: ١٠

قال تعالى: ﴿مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [التوبة: ٣٨] أى إنما لكم متاع فى الحياة الدنيا الدنيئة الحقيرة ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ [يونس: ٢٣] أى مصيركم ومآلكم ﴿فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٢٣] أى فنجبركم بجميع أعمالكم ونوفيكم إياها فمن وجد خيراً فلحيمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

التقلبات البشرية من خلال الأدعية الإنسانية فى القرآن:

قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾[1].

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾[2].

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾[3].

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾[4].

الإنسان طلبته النعيم، ومبتغاه الإكثار من الخير، يرنو تمتيع نفسه وحسه وجسده بألوان اللذائذ وأسباب النعيم، فإذا مانالته الخير استبشر وسعد وفرح

---

(١) الأنعام: ٦٣، ٦٤.
(٢) الإسراء: ٦٧-٦٩.
(٣) النحل: ٥٣، ٥٤.
(٤) هود: ٩ - ١١.

وتهلل، وأشاع الرضا والحبور في نفسه، أما إذا مسه ـ فضلاً عن أن يتمكن منه ـ ضر أو شر أسودت الدنيا في عينيه، وملأ اليأس قلبه، فهو يريد الحياة ضوءاً متلألئاً وسناً مشعاً لايشوبه ضعف أو خفوت، ويرغب في كل شيء طامعاً أن يخلد له كل شيء.. وإلا فاليأس يملأ عليه الشعاب، ويسد المسالك.. فإذا ماعفت نعمة الله على آثار النقمة، ومكن الله له بتحقيق أمله، وإستجابة رجائه انتفخ وانتعش زاعماً أن مايرتع فيه من خصب وخير إنما مرده إلى جهود شخصية، وجهاده الفردي، وأنه استحق ماحصل عليه بفضل عمله وكده وجهده، ويغلو متخيلاً أن مكاسبه ستدوم، ومنجزاته ستبقى، ثم يدر في تعاليه مؤكداً أن سعيد الدنيا هو سعيد الآخرة، وأنه سيضم إلى مسامعه في الدنيا، الحسنى عندما يرجع إلى ربه، والكرامة، وعلو القدر يوم الحساب..

قال تعالى: ﴿لا يَسْأَمُ الإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾[1].

فهذه الآيات توضح لنا بجلاء رغبة الإنسان في استجلابه الخير له ودفع الشر عنه، وتبين أن تمرد الإنسان على الدعاء في السراء دليل على احتياجه إليه في كل الأحايين لأن الامتناع عن الشيء يؤذن بصلاحيته في كل وقت.. فهو مُعْرِض عن الله في سرائه، قنوط لحاح في الدعاء في ضرائه وذلك من صفات الإنسان وغرائزه.

ونستبين منها أيضاً إحدى الصفات السلبية في الإنسان.. الطغيان.. إنها إحدى صفات النفس حين ينتابها شعور بالعظمة ويتملكها الإستبداد والظلم فتنحرف النفس إلى سلوك سلبي إذا ماأنيط بها مسئولية أو أنعم الله عليها بوافر

(١) فصلت: ٤٩ ـ ٥١.

نعمته فتجنح هذه النفس ويتملكها الغرور والإستبداد معتقدة أن رحلة حياتها دائمة، وسطوة سلطانها قادرة غافلة عن قدرة الله ونعمه، ونفس الطاغي لاتبصر حقيقة الحياة؛ لأنها حُجبت بحُبّ شهوة السلطة والمال فأصبح الطاغية يعيش حياته في حظيرة سلطته وأملاكه، تغلبه الأوهام وتهيىء له أن سلطانه دائم وماله لايفنى.

و قد حذّر الحق الإنسان من الطغيان، وذكّره بأن مرجع الإنسان طال أمرة أم قصر هو إلى الله ثم يلقى ماقدمت يداه حاضراً فلا يُغنى عنه ماله ولاسلطانه في شيء والأمر يومئذ لله.

قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ۝٨﴾[1].

وقال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ۝١٦﴾[2].

يقول الإمام محمد عبده:[3].

«وأنت ترى أن أحوال الناس إلى اليوم لاتزال كما ذكر الله في هذه الآية الكريمة، فإن أرباب السُلطة والقوة يظنون أنهم في أمن من عقاب الله ولايعرفون شيئاً من شرعه يمنعهم عملاً مماتسوق إليه شهواتهم وإنما يذكرون الله بألسنتهم ولايعرفون له سلطاناً على قلوبهم.

والفقراء الأذلاء قد صغرت نفوسهم عند أنفسهم، فهم لايبالون بما يفعلون، فإذا ذكروا الله فإنما هي حروف وأصوات ولاتمتاز في منفعتها عن أصوات بقية العجماوات.

---

(١) العلق: ٦-٨.

(٢) الفجر: ١٦.

(٣) في تفسيره لجزء عم ص ٨٢.

تلك حالة الإنسان الذي لم يمتّعه الله بعقل سليم ودين صحيح. أما الذين أنعم الله عليهم بنعمة العقل والدين فأولئك الذين ترتقى إلى مثل حالهم مرتبة الإنسان فيفارقون تلك الغرائز الحيوانية الأولى ويعلون إلى المقام الذى لاتذهلهم فيه القوة، ولايشغلهم فيه الفقر عن مراعاة الحدود المعروفة فيما هو حق لهم أو عليهم، ومعنى هذه الآية يميل إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلاَّ الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾[1].

فالإنسان المؤمن لاتستخفه عواصف الزمن، ولاتقلبات الدهر فهو فى مواجهة الشدائد صلب صابر واثق وراض بما قدر الله، وهو فى الرخاء كريم شاكر لله على ماأنعم .. ذلك أن نفس المؤمن تتذكر دائماً أن قوة الله فوق كل سلطان وهى متيقنة أن الرزق كله من عند الله يهبه لمن يشاء من عباده، ويمنعه عمن يشا، ونفس المؤمن لاترى فى الغنى سوى غنى النفس بحب الله.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾[2].

العجلة فى الدعاء

قال الله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً ﴿١١﴾﴾[3].

يخبر تعالى عن عجلة الإنسان ودعائه فى بعض الأحيان على نفسه أو ولده أو ماله بالشر أي بالموت أو الهلاك والدمار واللعنة ونحوذلك، فلو استجاب له ربه

---

(١) المعارج: ١٩ ـ ٢٥.

(٢) الجمعة: ٤.

(٣) الإسراء: ١١.

لهلك بدعائه كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ﴾ [يونس: ١١]، وإنما يحمل ابن آدم على ذلك قلقه وعجلته ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً﴾.

وقد ذكر سلمان الفارسي وابن عباس هاهنا قصة آدم عليه السلام حين هم بالنهوض قائماً قبل أن تصل الروح إلي رجليه، وذلك أنه جاءته النفخة من قبل رأسه فلما وصلت الروح إلى دماغه عطس فقال: الحمد لله، فقال الله: «يرحمك ربك ياآدم» فلما وصلت إلى عينيه فتحهما، فلما سرت إلى أعضائه وجسده جعل ينظر إليه ويعجبه فهمّ بالنهوض قبل أن تصل الروح إلى رجليه فلم يستطع، وقال يارب عجل قبل الليل.

أما مايمكن استنتاجه من هذه الآية فقد ذكره الألوسي قال: وقد استدل بهذه الآية علي بعض الإحتمالات الواردة فى تفسيرها على المنع من دعاء الرجل على نفسه أو على أولاده أو على أهله، وقد جاء النهى عن ذلك صريحاً فى بعض الأخبار، فقد أخرج أبو داود والبزاز عن جابر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لاتدعو على أنفسكم، لاتدعوا على أولادكم، لاتدعوا على أموالكم، لئلا توافقوا من الله تعالى ساعة فيها إجابة فيستجيب لكم».

ثم قال: وبهذا الحديث يرد على ماقيل من أن الدعاء بذلك لايُستجاب تفضلاً من الله وكرماً.. أما ماأخرجه الواقدى فى المغازى عن عائشة رضى الله عنها: «أن النبى ﷺ دخل عليها بأسير وقال لها: احتفظى به، قالت: فلهوت مع امرأة فخرج ولم أشعر، فدخل النبى ﷺ فسأل عنه فقلت: والله لاأدرى وغفلت عنه فخرج فقال: قطع الله يدك، ثم خرج عليه الصلاة والسلام فصاح به، فخرجوا فى طلبه حتى وجدوه، ثم دخل على فرأني وأنا أُقلب يدى فقال: مالك؟ قلت انتظر دعوتك، فرفع يديه وقال: اللهم إنما أنا بشر آسف وأغضب كما يغضب البشر، فأيما مؤمن أو مؤمنة دعوت عليه بدعوة فاجعلها له زكاة وطُهوراً».

ثم قال الألوسي: أما دعاء النبي على أهله فكان من باب الزجر، وإن كان وقت الغضب، وقد اشترط ﷺ على ربه سبحانه وتعالى في مثل ذلك أن يكون رحمة، فقد صح أنه عليه الصلاة والسلام قال: إني اشترطت على ربي فقلت: إنما أنا بشر، أرضى كما يرضى البشر، وأغضب كما يغضب البشر فأيما أحد دعوت عليه من أمتي بدعوة ليس لها بأهل أن تجعلها له طهوراً وزكاة».

والمراد من قول الرسول ﷺ «ليس لها بأهل» أي ليس لها بأهل عند الله، وفي باطن الأمر، ولكنه في الظاهر مستوجب لذلك.

وقيل إن هذا الدعاء ومثله من الرسول ﷺ ليس مقصوداً وإنما هو مما جرت به عادة العرب في وصل كلامها بلا نيّة كتربت يمينك، لكن خاف ﷺ أن يصادف شيء من ذلك إجابة، فسأل ربه سبحانه وتعالى، ورغب إليه في أن يجعل ذلك زكاة وقربة...

وقال الله تعالى: ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾[2].

والعجلة لغة هي طلب الشيء متقدماً على وقته أي قبل أن يحين موعده.

* قال الأخفش: معنى ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ أنه قيل له. كن فيكون.

* وقال الفراء: كأنه يقول بنيته وخلقته من العجلة وعلى العجلة.

* وقال الزجاج: خوطبت العرب بما تعقل، والعرب تقول للذي يكثر من الشيء خُلقت منه، كما تقول لمن يلعب كثيراً: لقد خُلقت من اللعب، تريد المبالغة في وصفه بذلك، ويدل على هذا المعنى ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً﴾.

* وقال أبو عبيدة وابن كثير: العَجَل هو الطين بلغة حمير وأنشدوا:

والنخل تنبت بين الماء والعجل

---

(١) الأنبياء: آية ٣٧.

(٢) يونس: ١١.

* وقال الشوكاني: أي جعل لفرط استعجاله كأنه مخلوق من العجل أي مطبوعاً على العجلة، ومن عجلته أن يسأل الشر كما يسأل الخير.

* وقال الألوسي: وكان الإنسان بحسب جبلته عجولا ضجراً لا يتأنى إلى أن يزول عنه مايعتريه، أي يسارع إلى طلب كل مايخطر بباله متعاميا عن ضرره أومبالغاً في العجلة، يستعجل الشر والعذاب وهو آتيه لامحالة، ففيه نوع تهكم به.

* وقال أبوعبيدة والنحاس: هذه الآية من المقلوب أي خُلق العجل من الإنسان.

إن الإنسان خُلق من عجل فكأنها هو، وكأنه هي، وذلك من قوة ملازمتها له واتصالها به، واستمرارها معه، وفي هذه الآية لمحة لطيفة تجدر الإشارة إليها وهي أن العجلة التي اتصف بها الإنسان في القرآن غالباً مقترنة بالدعاء، لم يتصف بها فحسب بل هو خُلق منها، فعجلته جزء من كيانه غير أنها لاتظهر غالباً إلا في الحالات الأسمى من شئونه، وهي تحصيل منافعه، واجتناب كل مايضره وماهذا إلا الدعاء بعينه!.

فهو خُلق من عجل، وكأن عجلته هذه لم تظهر ولم تستعمل إلا في الدعاء، فكأنه خُلق من الدعاء وللدعاء! ولذلك قال الإمام الشوكاني كأن الإنسان لفرط استعجاله مخلوق من العجل.. ولعل الحامل لكل هذا هو ماصوره الله تعالى في قوله: ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾[1].. وقد يصح القول بأن هذه الجملة نتيجة وسبباً.

ولكن إذا كان الإنسان محتاجاً إلى الدعاء في كل أحواله، فحاجته إلى ترك العجلة أشد، والعجلة من الشيطان إلا في خمس مواضع فإنها من سنن الرسول ﷺ وهي: إطعام الضيف إذا نزل، وتجهيز الميت إذا مات، وتزويج البنت إذا بلغت وقضاء الدين إذا وجب، والتوبة من الذنب إذا فرط.

والعَجَلة من السمات السلبية التي يتميز بها الإنسان، وهذه الصفة تدفعه دائماً ليتطلع إلى مابعد اللحظة القائمة يريد أن يمتد بصره طويلاً مابعد مدى البصر

---

(١) الأنبياء: ٣٧

محاولاً إختراق حجب الزمان ليقطف الثمار قبل الأوان وقديما قالت العرب: «من استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه» ومن ثم فالعجلة آثار سلبية لأنها توقع الإنسان في أخطاء سلوكية وتحرفه عن تحقيق الهدف وتجعله يحيد عن التخطيط السليم المنظم المنضبط، ولها أخطاءفي مجال التفكير والتدبير، فقد يترتب عليها قرارات خاطئة، وفي مجال الإنفعالات والسلوكيات والعواطف الإنسانية لها آثار وتغيرات خطيرة، وقد ينتج عنها سلوكيات وانفعالات متطرفة أوحادة مما يترتب عليه عدوان أو ظلم ثم تصبح نهاية العجلة الندم.

وعلاج العجلة هو الإيمان بالله وقضائه وقدره وهذا يبعث الطمأنينة في النفس. فالمؤمن عنوان سلوكه وانفعاله السكينة والوقار والهدوء، آمن مطمئن في دعائه.. آمن مطمئن إلى قضاء الله وقدره، مستوثق بعُراه التي لاتنفصم، لايستعجل أمراً لأنه متيقن إن الأمر كله بيد الله يدبره كيف يشاء، ولا راد لإرادة الله.

يقول الرسول ﷺ: «مامن يوم تطلع شمسه إلا وتقول السماء: يارب ائذن لي أن أسقط كسفاً على ابن آدم فقد طعم خيرك، ومنع شرك.. وتقول الأرض: يارب ائذن لي أن أبتلع ابن آدم، فقد أكل خيرك، ومنع شكرك.. وتقول البحار: يارب إئذن لي أن أغرق ابن آدم، فقد أكل خيرك، ومنع شكرك، وتقول الجبال: يارب ائذن لي، أن أطبق على ابن آدم فقد أكل خيرك، ومنع شكرك ..... فيقول الله لهم جميعاً: لو خلقتموه لرحمتموه،دعوني وعبادي.. إن تابوا إليّ فأنا حبيبهم.. وإن لم يتوبوا، فأنا طبيبهم».